الزهرة الذهبية

نسرين مغربي

فلسطين

عادة أتجنب إطلاق الأحكام على ديوان شعري كامل، لأني دائما أتوخى الحذر وأحاول معالجة قصيدة مفردة أو ربما مقطع من قصيدة، لكني سأغامر هذه المرة وسأحاول الحكم على أربعة دواوين للشاعر محمود درويش، رغم أني في النهاية سأركز على قصيدة واحدة من ديوانه الأخير "لا تعتذر عما فعلت".

بداية أقول إنه لفتت انتباهي مقالة عن ديوان الشاعر محمود درويش "لا تعتذر عما فعلت" بقلم الشاعر اللبناني محمد علي شمس الدين (نشرت في صحيفة الرياض بتاريخ 2004/2/26) ووردت فيها التفاصيل التالية عن الديوان الأنف:

"نجد أنفسنا أمام سبع وأربعين قصيدة صغيرة، بوزن واحد، هو الكامل، بنواته العروضية "مستفعلن" وجوازها "متفاعلن" وهي تتدافع أو تتلاحق بنسق واحد، رتيب، متماثل، سلس كتدافع مويجات في بحر هادئ أو نهر غير صاخب".

وكانت هذه الملاحظة العروضية هامة بالنسبة لي, نظرا لافتقاري إلى ثقافة عروضية لائقة, واعتمد في تحليلي القادم على هذه الخصيصة (على مسؤولية الشاعر شمس الدين!) في محاولة لإعطاء تفسير للسبب الذي جعل الشاعر محمود درويش يختار بحر الكامل دون غيره ليبني عليه جميع قصائد الديوان. واعتقد أن الأمر يتعلق بالخيمياء، تلك الصنعة العربية القديمة والتي سعت إلى تحويل المعادن الخسيسة إلى معدن ثمين - هو الذهب - من خلال الوصول إلى حجر الفلاسفة, أو إكسير الحياة الذي يمنح الشباب الدائم. وبناء على مقالة بعنوان "شعراء الكيمياء العرب" بقلم احمد فضل شبلول - الإسكندرية (وجدتها في أحد المواقع على الانترنت) ، فان هناك عددا من الشعراء والفلاسفة والصوفيين العرب الذين استهوتهم الكيمياء, يذكر منهم ذا النون المصري، جابر بن حيان، الطغرائي، ابن رشد، محيي الدين بن عربي، أبا يحيى زكريا الرازي وغيرهم. ويقول إن العرب سموا الكيمياء القديمة (الخيمياء) "الصنعة أو التدبير، وعُرف أصحابها باسم الصنعويين". وقد طالعت مؤخرا بعض المواد التي

تتحدث عن الخيمياء وخطرت في بالي فكرة أن يكون الشاعر محمود درويش قد جعل آخر أربعة دواوين* له تدور حول مراحل العملية الخيميائية، وهي سبعة: الاشتعال، التذويب، التجفيف، التسامي, الموت, الفصل، وتوحيد الأضداد. وبناء على نظرية يونغ السيكولوجية فإن للعملية الخيميائية أبعادا نفسية، فقد اهتم يونغ بالخيمياء كثيرا، وبعد أن اطلع على نصوص خيميائية بتعمق رأى أن الخيمياء تتحدث عن النفس أساسا، فالخيميائيون كانوا يتحدثون عن العمليات الخيميائية, موادها وتمظهراتها بمصطلحات نفسية بشرية زاوجت بين ما يحدث داخل الوعاء الخيميائي وبين المشاعر والأحاسيس التي انتابت الخيميائي، والتي تناقلها الخيميائيون وتوارثوها مضيفين إليها ملاحظات نفسية ثاقبة، إلى جانب الاستكشافات المادية الملموسة والتي انبثق عنها فيما بعد علم الكيمياء. وجاء يونغ وجمع هذه الاستبصارات وطورها في إطار سيكولوجيا الأعماق الخاصة به. فالمادة الأولية في العملية الخيميائية تقابل عنده المرحلة البدائية الغريزية اللاواعية، شديدة التناقض وغير المشذبة في نفس الإنسان، والمرحلة النهائية - مرحلة الوصول إلى حجر الفلاسفة - هي مرحلة التكامل والكمال النفسي والتي يخرج فيها الانسان بفردانيته المميزة والمستقلة. بناء عليه، فإن لكل مرحلة من المراحل الآنفة خصيصة نفسية تقابلها، وسأركز هنا على آخر أربع مراحل لوثوق صلتها بما أريد الإشارة إليه.

-مرحلة **التسامي** - التبخير المادي، ومن ناحية نفسية يتم فيها استبدال الملموس الغريزي بالروحاني والرمزي.

-مرحلة **الموت** - أي تغيير يطرأ على حالة المادة والانتقال من مرحلة إلى أخرى تتم الإشارة إليه بالموت. في الحقيقة هذه ليست مرحلة قائمة بحد ذاتها إنما تشير إلى التحول المرموز بالموت وانتهاء المرحلة السابقة, استعدادا لتحقيق الانبعاث والولادة من جديد. هذا الموتيف يظهر مثلا عند الانتقال إلى حالات وعي استثنائية, كما في الأحوال الصوفية الرؤيوية.

-مرحلة **الفصل** - عمليات التقطيع، الغربلة، التصفية وفصل المادة عن أية شائبة لا تخصها، وهي عملية هامة نفسيا لأن الفصل يتيح للإنسان ترتيب مضامينه النفسية، والحرص على عدم تداخلها وتشابك بعضها البعض، ويساعد العلاج النفسي مثلا على القيام بمثل هذه العملية.

جمع الأضداد - ضم المواد المختلفة لتحقيق وحدة مكتملة واحدة, توحيد أجزاء النفس المتناقضة في كل كامل واحد. وفيها - نفسيا - تحدث المصالحة بين هذه الأجزاء حيث يتم احتواؤها بأناة وصبر داخل نفس الفرد.

وبرأيي يمكن إلحاق ديوان "سرير الغريبة" بمرحلة التسامي، وأعود هنا إلى الشاعر محمد علي شمس الدين, والذي تحدث في المقالة الآنفة عن هذا الديوان قائلا: "وإذا كان محمود درويش قد مشى في مراحله الطويلة في صيرورته الشعرية من الخطوط المستقيمة إلى الزوايا والدوائر, ومن الإعلان واليقين إلى الإشارة والرمز, ومن الإثبات إلى النفي، فإنه في "سرير الغريبة" تعيينا ومن ثم في "جدارية" انتهى انتهاء دراميا كبطل شكسبيري لم يبق لديه سوى الكلمات.. الكلمات, الكلمات".

وهذا الوصف هو احد مشتقات مفهوم التسامي النفسي طبعا.

أما ديوان "جدارية" فهو مرحلة الموت الخيميائية بالتجربة المرضية التي مر بها الشاعر ومخاطبته للموت، بل واستفزازه في بعض الأحيان والتشنيع عليه.

مرحلة الفصل - أجدها في ديوان "حالة حصار"، فالحصار هو عملية فصل واضح، كما أن الديوان يتميز بالمقاطع الشعرية القصيرة والمنفصلة عن بعضها البعض.

وأخيرا تأتي مرحلة التكامل وجمع الأضداد في ديوان "لا تعتذر عما فعلت". وهنا استعين برأي الشاعر شمس الدين بان الديوان مبني على بحر "الكامل" شكليا، وأضيف إليه بأنه من ناحية مضمونية أيضا يشمل عددا من القصائد التي تدور حول مواضيع نفسية خاصة بمرحلة "لمّ شمل" أجزاء النفس المتناقضة من اجل تحقيق الكمال النفسي والوصول إلى الاستقلالية الفردانية في نهاية العملية الخيميائية/ النفسية. ومنها على سبيل المثال:

الجمع بين الوعي واللاوعي، الإلهي والبشري، التقدم والتراجع، الداخلي والخارجي, الانفصال والانضواء, الموضوعي والشخصي, المذكر والمؤنث، الخير والشر، الانا والظل، السلبي والفعال.

الكثير من هذه الأضداد منثورة بين طيات الديوان لنأخذ مثلا قصيدة "الظل" التي تتحدث عن الآخر المعتم في نفس الشاعر, لكنه يجمعه به في قالب فكاهي.

قصيدة "هو هادئ وأنا كذلك" تعالج الحوار الأخرس بين الأنا والآخر (العدو / الأجنبي)، بالتوجس المتبادل بينهما رغم أنهما صورة مرآتية لبعضهما البعض، وليست بينهما غير فروق طفيفة.

قصيدة "هذا هو النسيان" والتي ترى أن كثرة التذكر هو النسيان بحد ذاته، حيث يختتم الشاعر القصيدة بقوله:

"هذا هو النسيان: أن تتذكر الماضي
ولا تتذكر الغد في الحكاية".

أو قصيدة "هي في المساء" والتي تعتبر تنويعا لونيا على قصيدة "هو هادئ وأنا كذلك" لكن الآخر هنا مؤنث، لذلك فإنها تعالج التكامل بين المؤنث والمذكر:

"هي في المساء وحيدة،
وأنا وحيد مثلها..
...
هي لا تراني, إذ أراها
حين تقطف وردة من صدرها
وأنا كذلك لا أراها، إذ تراني
حين ارشف من نبيذي قبلة".

اعتقد أنه لا حاجة لإعطاء المزيد من الأمثلة فيمكن لمن يرغب التوسع في الأمور لوحده، وسأختتم بإيراد قصيدة خيميائية بامتياز للشاعر, واجدها طريفة من حيث كونها توقيعا خفيا للشاعر عن طبيعة "صنعته"، ووجدتها كذلك لأنها ذكرتني بالرسامين الذين كانوا يدخلون صورتهم كتوقيع شخصي في لوحاتهم، من خلال انعكاس هذه الصورة في مرآة موجودة في تكوين اللوحة أحيانا. واعني هنا قصيدة "قل ما تشاء" والتي مهر فيها توقيعه- محمود درويش الخيميائي:

قل ما تشاء. ضع النقاط على الحروف.
ضع الحروف مع الحروف لتولد الكلمات،
غامضة وواضحة، ويبتدئ الكلام.
ضع الكلام على المجاز. ضع المجاز على
الخيال. ضع الخيال على تلفته البعيد.
ضع البعيد على البعيد... سيولد الإيقاع
عند تشابك الصور الغريبة من لقاء
الواقعي مع الخيالي/ المشاكس
هل كتبت قصيدة؟
كلا؟
لعل هناك ملحا زائدا أو ناقصا
في المفردة. لعل حادثة اخلت بالتوازن
في معادلة الظلال. لعل نسرا
مات في أعالي الجبال. لعل ارض
الرمز خفت في الكناية فاستباحتها

الرياح. لعلها ثقلت على ريش الخيال.
لعل قلبك لم يفكر جيدا, ولعل
فكرك لم يحس بما يرجُّك. فالقصيدة
زوجة الغد وابنة الماضي، تخيّم في
مكان غامض بين الكتابة والكلام:
فهل كتبت قصيدة؟
كلا؟
إذن ماذا كتبت؟
كتبت درسا جامعيا,
واعتزلت الشعر منذ عرفت
كيمياء القصيدة... واعتزلت!

هنا يدخل الشاعر/ الخيميائي إلى مختبره الشعري، ويبدأ العملية آملا في الوصل إلى ذهب القصيدة. الطريف أني وجدت في مقالة احمد فضل شبلول الأنفة نصا شعريا يذكّر متنه بالقصيدة الآنفة والتي يعطي فيها الشاعر تعليمات للوصول إلى الذهب من النحاس, ويشير الشاعر (هو خالد بن يزيد بن معاوية الأموي) إلى لغة الرموز الخيميائية كمادة الزئبق الأولية وهي إحدى المواد الأولية المستعملة للوصول إلى المرحلة النهائية: إكسير الحياة أو حجر الفلاسفة, ويكني عن الذهب أو حجر الفلاسفة في القصيدة بالزهرة والخرشقلا أو ابن النار. فالزهرة هي نتاج نضج العملية الخيميائية، وترمز نفسيا إلى الاكتمال النفسي. أما تسمية "ابن النار" فتشير إلى مرحلة الاشتعال الخيميائية ويقول انه يستعملها للتضليل. وتسمية "الخرشقلا" تبدو لي للتعمية وإضفاء البعد السحري والرمزي على العملية الخيميائية والتي تميزت بسريتها الشديدة خوفا من أعين وأيدي العامة عديمي الكفاءة (إلا إذا كان لها معنى أجنبي ذو صلة بالرموز الخيميائية)، وفي نهاية القصية يقول الشاعر إن الناتج هو "تصليح" للنحاس حيث يتم منه الحصول على الذهب الذي يذل كل عزيز. ويخاطب الشاعر من يريد التزود من حكمة الخيميائيين بقوله إن حجر الفلاسفة :

هو زئبق الشرق الذي هتفوا به — في كتبهم من جملة الأشياء
سموه زهرا في خفي رموزهم — والخرشقلا أغمض الأسماء
ودعوه بان النار كيما يصدقوا — عن صنعه بخلا عن البعداء
فإذا أردت مثاله فاعمد إلى — جسم النحاس وناره الصفراء
فامزجهما مزج امرئ ذي حكمة — واحكم مزاوجة الهوا بالماء

واسحق مركبك الذي ازوجته بالجد من صبح إلى الامساء
سحقا يفتته وينهك جسمه حتى تراه كزبدة بيضاء
واجمعه واتقنه ودعه بصِرفه حتى الصباح وغطه بغطاء
هذا أبار نحاسهم فافطن له هذا مذل ذوي اللحى النجباء

وعودة إلى قصيدة الشاعر محمود درويش أقول إنه هو الآخر يخاطب نفسه ليضع المواد الأولية من نقاط وحروف وكلمات, ويمزجها ويشبكها ويحاول أن يحافظ على التوازن في المعادلة الخيميائية الخفية, وبعد ذلك يتساءل : هل وصلت إلى حجر الفلاسفة/ ذهب القصيدة/ القصيدة المكتملة؟ ويجيب بالنفي، ثم يحاول إيجاد نقاط الضعف وتبرير الفشل لكن القصيدة تبقى عصية, وتفلت من يديه دون ان تمكنه منها ومن الوصول إلى معدنها الثمين, فما يحصل عليه هو معدن أخس وأدنى مرتبة: "درس جامعي"!

---

* كتبت هذه المقالة قبل عدة أشهر، و لم يتسن لي نشرها لأسباب خارجة عن إرادتي، لكن في هذه الأثناء صدرت للشاعر محمود درويش مجموعة من دواوينه الخمسة الأخيرة :"لماذا تركت الحصان وحيدا"، "سرير الغريبة"، الجدراية"، "حالة حصار"، "لا تعتذر عما فعلت"، في طبعة واحدة. واعتقد أن السبب يعود إلى أن هذه الدواوين هي مجموعة "التجارب الخيميائية" التي أجراها الشاعر ضمن مشروع شعري موحد. وقد أغفلت في مقالتي ديوان "لماذا تركت الحصان وحيدا " (كان عليّ أن ابدأ من مكان ما!)، وهذا لا يفند ادعائي، بالعكس فهذا الديوان هو مرحلة التجفيف التي تسبق مرحلة التسامي (ديوان "سرير الغربية") وفيه تقف "الأنا" على قدميها خالية من الشوائب الخيالية التي تعيق واقعيتها. وفعلا فان الحصان لدى الشاعر هو رمز "للانا" بجميع المفاهيم. واعتقد أن ضم هذه الدواوين معا هو إنذار بإنهاء هذه المغامرة الخيميائية في شعره والتمهيد لانبعاثه في مشروع شعري جديد كل الجدة بعيدا عن أعين النقاد أو الناقدات!